

القــدوة
بين الاتباع والابتداع

مع موازنة بين شيخ العلم
وشيخ التربية

د. عبد الله الشارف






سلسلة تصحيح المفاهيم والمصطلحات (1)

القدوة بين

الاتباع والابتداع

مع موازنة بين شيخ العلم وشيخ التربية

د.عبد الله الشارف
كلية أصول الدين/تطوان

الكتاب : القدوة بين الاتباع والابتداع
مع موازنة بين شيخ العلم وشيخ التربية

المؤلف : د. عبد الله الشارف

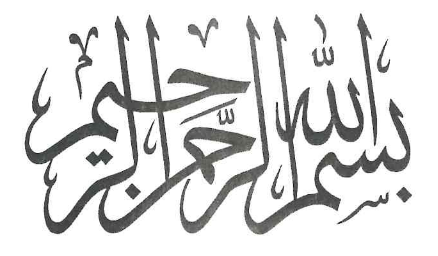
الناشر : مكتبة سلمى الثقافية

الطبعة : - 2007 م.

رقم الإيداع : 2007/2979

الطباعة : مطبعة الخليج العربي " 152, شارع الحسن الثاني - تطوان "

الهاتف : 25 02 71 039 / الفاكس: 37 05 71 039


بسم الله الرحمن الرحيم

المبحث الأول:

مفهوم القدوة عند جمهور المسلمين

توطئة:

القدوة كلمة حسنة وجميلة تحمل معاني دينية وخلقية ومعرفية لا حدود لها. ولقد أتى على الإسلام زمن كان المسلمون فيه يمارسون معاني القدوة، ويجسدونها في حياتهم التربوية والثقافية والاجتماعية، فكانوا مثالا يحتذى في ميادين العلم والمعرفة والسياسة والتربية. وسرت في كيانهم تلك المعاني بعد أن آمنوا بعقيدة التوحيد، وآثروا حب الله عز وجل، وحب نبيه صلوات الله وسلامه عليه، على كل محبوب حتى أنفسهم. واندفعوا مسترشدين بالوحي القرآني والسنة النبوية، يفجرون الطاقات الكامنة في بواطنهم، ويوظفونها في بناء أحسن مجتمع إنساني، بل أفضل حضارة عرفها التاريخ البشري. ثم أتى عليهم زمن أصيبوا فيه بالوهن، وغدوا غثاء كغثاء السيل، فأخلدوا إلى الأرض واتبعوا أهواءهم، وضعفت في نفوسهم القيم الإسلامية، وأصبحت معاني القدوة الصحيحة وغيرها من معاني القيم الإسلامية أثرا بعد عين.

وجاء الغزو الاستعماري والمسلمون ضعفاء جبناء بسبب بعدهم عن الكتاب والسنة، فلم يستطيعوا مواجهة العدو، بل استسلم كثير منهم لهذا القدر، واعتبروا الأمر خارجا عن حدود طاقاتهم، بما فشا فيهم من روح الكسل والتواكل.

ثم إن المطلع على تاريخ الأمة الإسلامية بدءا من القرن الثامن الهجري إلى زمن الاستعمار الأجنبي، يصطدم بحقيقة مرة ومؤلمة؛ ألا وهي تطور ظاهرة التصوف الطرقي، وانتشار الزوايا والمؤسسات الصوفية الطرقية، وما يرتبط بذلك من نظم المشيخة، والعادات والأعراف والطقوس المتعلقة بحياة المريدين وتربيتهم. وفي مقابل ذلك خفت صوت العلم وخبت جذوة ناره، وضعف الاجتهاد الفقهي، وتوقفت عجلة الثقافة عن الإبداع، واستقراء السنن الاجتماعية والتاريخية، وأصاب الشلل كافة النواحي الدينية والاجتماعية والعلمية، وحلت القدوة الصوفية الطرقية محل القدوة العلمية الربانية التي كانت تنهل من مشكاة النبوة.

لقد أرسل الله سبحانه وتعالى محمدا صلى الله عليه وسلم، بالهدى ودين الحق بين يدي الساعة بشيرا ونذيرا،

وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا، فختم به الرسالة وهدى به من الضلالة، فأشرقت برسالته الأرض بعد ظلماتها، وتألفت بها القلوب بعد شتاتها، فأقام بها الملة العوجاء، وأوضح بها المحجة البيضاء. ولولا الرسالة لم يهتد الإنسان إلى تمييز النافع من الضار، ولا الصالح من الطالح، ولم يتبين حقيقة بدايته ونشأته وحقيقة نهايته ومعاده، ولا سبب وجوده وجوهر حياته، ولا اطلع على أخص أوصافه وهو وصف العبودية، كما أن الأنبياء هم الأدلاء على ذات الله وصفاته، وهم الوسيلة الوحيدة لمعرفة الله تعالى معرفة صحيحة لا يشوبها جهل ولا ضلال، وأن هذه المعرفة لا يستقل بها عقل، ولا يغني فيها ذكاء، ولا تكفي فيها سلامة الفطرة، يقول العلامة أحمد بن تيمية رحمه الله :

"الرسالة ضرورية للعباد، لابد لهم منها، وحاجتهم إليها فوق حاجتهم إلى كل شيء، والرسالة روح العالم ونوره وحياته، فأي صلاح للعالم إذا عدم الروح والحياة والنور؟ والدنيا مظلمة ملعونة، إلا ما طلعت عليه شمس الرسالة،

وكذلك العبد ما لم تشرق في قلبه شمس الرسالة وينالـه مـن حياتها وروحها فهو في ظلمة؛ وهو من الأموات."[1]

"وليست حاجة أهل الأرض إلى الرسول كحاجتهم إلى الشمس والقمر والرياح والمطر، ولا كحاجة الإنسان إلى حياته؛ ولا كحاجة العين إلى ضوئها والجسم إلى الطعام والشراب؛ بل أعظم من ذلك؛ وأشد حاجة من كل ما يقدر ويخطر بالبال، فالرسل وسائط بين الله وبين خلقه في أمره ونهيه، وهم السفراء بينه وبين عباده."[2]

يستفاد من كلام الفقيه أحمد ابن تيمية، أن الحياة الصالحة والنافعة إنما تحصل باتباع الرسالة والاقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم، وأن الإعراض عن ذلك يجعل الإنسان ميتا وهو يحسب نفسه حيا. قال تعالى: "يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون"[3]. فمن استجاب لله وللرسول كان من الأحياء، وإن مات وفارق الدنيا. كما أن أكمل الناس حياة في الدنيا والآخرة، أكملهم

---

[1]- أحمد بن تيمية، مجموع الفتاوى ج 19 ص 93

[2]- المرجع نفسه، ج 19 ص 101

[3]- سورة الأنفال، آية 24.

استجابة لدعوة الرسول صلى الله عليه وسلم، فالحياة الحقيقية الطيبة هي حياة من استجاب لله وللرسول ظاهرا وباطنا.

قال العلامة المحقق القاضي أبو الفضل عياض السبتي:" قال جعفر بن محمد (أي جعفر الصادق): علم الله تعالى عجز خلقه عن طاعته... ، فأقام بينه وبينهم مخلوقا من جنسهم في الصورة، ألبسه من نعته الرأفة والرحمة، وأخرجه إلى الخلق سفيرا صادقا، وجعل طاعته طاعته، وموافقته موافقته، فقال تعالى: "من يطع الرسول فقد أطاع الله" (النساء، آية 80) قال أبو بكر محمد بن طاهر: زين الله محمدا صلى الله عليه وسلم بزينة الرحمة. فكان كونه رحمة وجميع شمائله وصفاته رحمة على الخلق، فمن أصابه شيء من رحمته فهو الناجي في الدارين من كل مكروه، والواصل فيهما إلى كل محبوب، ألا ترى أن الله تعالى يقول: "وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين" (الأنبياء 107)"[4].

[4]- القاضي أبو الفضل عياض السبتي: "الشفا بتعريف حقوق المصطفى" دار الكتب العلمية بيروت 2000/1420 الجزء الأول ص 18

السنة النبوية روح القدوة الصحيحة:

لا شيء أنفع للمحافظة على المقومات الذاتية للمسلم وعلى أصالته، والارتقاء بسلوكياته وأخلاقه، ولتحقيق أمنه وسعادته في الدنيا والآخرة من سنة الرسول محمد صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله. ولقد ضلت البشرية وما زالت، عندما ظنت أن الأمن والسعادة يمكن جلبهما وتحقيقهما اعتمادا على العقل وحده، فتكسرت معاول الفلاسفة والعباقرة ومدعي الحكمة، على صخور الحقيقة الشماء، وخارت قواهم من فرط البحث والتنقيب، وأنهكهم الكبر والعجب والغرور، فحالت حجب النفس بينهم وبين المعرفة الصحيحة. وهل لغير الخالق القدرة على الإحاطة بطبيعة الإنسان، وجلب المنافع له ودفع الأضرار عنه؟ لا ورب السموات والأرض.

إن المعرفة الصحيحة بالإنسان ينبغي أن تستمد من خارج نطاق العقل الإنساني، أي من الوحي الإلهي المتجسد في الرسالة النبوية.

والسنة المطهرة قسمان: واجب ومستحب، والأول لا يمكن تركه. والثاني إما متعلق بالعبادات والمعاملات، أو مرتبط بالآداب النبوية الشريفة. فالمسلم الذي يحافظ على

السنة الواجبة ويجتهد في ممارسة السنة المستحبة، حتى تتحول عاداته إلى عبادات، فإنه يستفيض من نور الأدب النبوي، وتكون حياته مرتبطة بحياة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم. ورسولنا أولى الناس بالتقليد والاتباع، لما في ذلك من الحكمة والمصلحة الفردية والاجتماعية. ومن لم يتبع السنة متكاسلا عنها فهو في خسران مبين. ومن لم يتبعها غير مكترث بها، فقد جنى على نفسه جناية كبرى. أما من ينتقدها أو ينتقص من قدرها، فهو في ضلالة عظيمة.

ولما كانت خِلقة الرسول صلى الله عليه وسلم، في أحسن تقويم وأفضل وضع وأعدله، وأكمل صورة وأبهاها، وكانت شخصيته صلوات الله عليه مثالا للصفات الحسنة والأخلاق السامية، فإن جميع ما يصدر منه من حركات وسكنات، وأقوال وأفعال، يسير وفق الاعتدال والاستقامة والوسطية، ويهدف إلى معاني الاستخلاف كما يهدف على معاني العبودية في أبهى وأجمل صورها وتجلياتها. قال الفقيه العلامة القاضي أبو الفضل عياض السبتي: " وقد اختلف المفسرون في معنى قوله تعالى في أم الكتاب "اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم"، فقال أبو العالية والحسن البصري: الصراط المستقيم هو رسول الله

صلى الله عليه وسلم، وخيار أهل بيته وأصحابه، حكاه أبو الحسن الماوردي، وحكى مكي عنهما نحوه، وقال هو رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحباه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، وحكى أبو الليث السمرقندي مثله عن أبي العالية في قوله تعالى (صراط الذين أنعمت عليهم)، قال فبلغ ذلك الحسن فقال صدق والله ونصح"[5]

كيف لا وقد تم اصطفاؤه صلوات الله عليه، والبشرية لا أثر لها، وأحبه الله وأعلى منزلته ولما يخلق ويبعث، وبشر به عيسى عليه السلام قومه، بل مدحه الله تعالى قائلا: " وإنك لعلى خلق عظيم"[6] وقوله كلامه، وكلامه من صفاته، وصفاته من ذاته، فأعظم بها من منزلة، وأكرم بها من نعمة.

كيف لا وقد جمع صلوات الله وسلامه عليه شرف الأخلاق إلى شرف الأعراق، وكرم الآداب إلى كرم الأنساب. كما أنه صلى الله عليه وسلم "درع الأمة وحصنها ولسان الشريعة، وقرارة الأدب والعلم، ومجمع الدراية والفهم، وخلقه لو مزج به البحر لنفى ملوحته، وصفى كدورته، خلق كالرحيق مزاجه التسنيم، خلق كنسيم الأسحار،

---

[5] - الشفا بتعريف حقوق المصطفى... ... الجزء 1 ص 22
[6] - سورة القلم، آية 4

على صفحات الأنوار، يمشي في أقصد الطرق، ويأخذ بأرشد الخلق، قد أتاه الله قوة بصيرة، وحسن سريرة، أعرض عن الدنيا، وقد أعرضت له بزينتها، وصد عنها وقد قصدت له في تحليتها، كما أنه صلى الله عليه وسلم غذاء الحياة ونسيم العيش، وقوة النفس ومادة الأنس"[7]

ولقد بين الإمام أحمد بن تيمية أن " طريقة أهل السنة، اتباع آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم باطنا وظاهرا، واتباع سبيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، وآتباع وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال:"عليكم بسنتي" إلى آخر الحديث. فهم إنما سموا بأهل السنة لهذا المعنى، وسموا أهل الجماعة لأن الجماعة هي الاجتماع، وضدها الفرقة، نسبة إلى الأصل الثالث وهو الإجماع، ويقصد به الإجماع المنضبط وهو ما كان عليه السلف الصالح إذ بعدهم كثر الاختلاف، وافترقت الأمة"[8]

وقال أيضا: "الحق دائما مع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وآثاره الصحيحة، وأن كل طائفة تضاف إلى

---

[7]- مقتطف من "لباب الآداب"لأبي منصور عبد الملك الثعالبي، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، ط1 1424-2003. ص 209-210.

[8] - أحمد بن تيمية؛ مجموع الفتاوى، ج3 ص157

غيره إذا انفردت بقول عن سائر الأمة، لم يكن القول الذي انفردت به إلا خطأ، بخلاف المضاف إلى أهل السنة والحديث، فإن الصواب معهم دائما، ومن وافقهم كان الصواب معه دائما لموافقته إياهم... فإن الحق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمن كان أعلم بسنته وأتبع لها كان الصواب معه. ."[9]

ولما أعرض كثير من الطوائف الكلامية والفلسفية، والصوفية الحلولية والطرقية، عن النظر في الأحاديث النبوية الصحيحة والاحتكام إليها، استعملوا آلة التأويل واندفعوا يؤولون جملة من الآيات القرآنية مسترشدين في ذلك بأهوائهم وعواطفهم، وبآراء ومعتقدات تسربت من ملل وعقائد وفلسفات أجنبية.

قال العلامة أبو إسحاق الشاطبي" "وإنما وقع الخروج عن السنة في أولئك، لمكان إعمالهم الرأي وإطراحهم السنن؛ وذلك أن السنة، كما تبين، توضح المجمل، وتقيد المطلق، وتخصص العموم، فتخرج كثيرا من الصيغ القرآنية عن ظاهر مفهومها في أصل اللغة، بذلك أن بيان السنة هو مراد

[9] ـ أحمد بن تيمية؛ منهاج السنة، ج3 ص46

الله تعالى من تلك الصيغ، فإذا طرحت واتبع ظاهر الصيغ بمجرد الهوى صار صاحب هذا النظر ضالا في نظره، جاهلا بالكتاب خابطا في عمياء لا يهتدي إلى الصواب فيها؛ إذ ليس للعقول من إدراك المنافع والمضار في التصرفات الدنيوية إلا النزر اليسير."[10]

وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى عماله بتعلم السنة والفرائض واللحن أي اللغة، وقال إن ناسا يجادلونكم- يعني بالقرآن- فخذوهم بالسنن فإن أصحاب السنن أعلم بكتاب الله"[11]

"وقال عبد الله بن مسعود: الاقتصاد في السنة خير من الاجتهاد في البدعة، وقال ابن كعب رضي الله عنه: عليكم بالسبيل والسنة فإنه ليس من عبد على سبيل وسنة ذكر الله ففاضت عيناه من خشية الله فمسته النار أبدا. وإن اقتصاداً في سبيل وسنة خير من اجتهاد في خلاف سبيل وسنة.

---

[10]- الموافقات المجلد الثاني الجزء الرابع ص 15
[11]- الشفا بتعريف حقوق المصطفى، الجزء الثاني ص 9

وقال الأوزاعي رضي الله عنه: اصبر نفسك على السنة، وقف حيث وقف القوم، وقل بما قالوا، وكف عما كفوا عنه، واسلك سبيل سلفك الصالح، فإنه يسعك ما وسعهم"[12]

"وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: لست تاركا شيئا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعمل به إلا عملت به، إني أخشى إن تركت شيئا من أمره أن أزيغ"[13]

إن هذه النصوص وأمثالها تنبه القارئ الفطن على مدى حرص السلف الصالح – رضي الله عنهم– على احترام السنة وتقديسها، والتفاني في حبها، والعمل بمقتضاها، والاحتكام إليها، والتواصي بالصبر عليها، ونبذ طريق أهل التأويل والبدع. بل إن الخليفة الأول رضي الله عنه عندما قال: "... إني أخشى إن تركت شيئا من أمره أن أزيغ"، ليعبر بكلام جامع مانع عن مفهوم القدوة عند جمهور المسلمين، وعن قوله تعالى " لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة". [13] فشدة محبته لسنة نبيه صلى الله عليه وسلم،

---

[12]- عبد الرحمن أبو بكر السيوطي: " الأمر بالاتباع والنهي عن الابتداع" تحقيق مصطفى عبد القادر عطا/ دار الكتب العلمية بيروت لبنان 1408/1988/ ص 12-13

[13] - الشفا... المرجع السابق، ج 2- ص12.

[13] - سورة الأحزاب، آية 21

واعتقاده الراسخ في أن السعادة متعلقة بها، والنجاة منوطة باتباعها، كل ذلك جعله يخشى ويخاف الزيغ إن هو ترك شيئا منها. والزيغ لغة هو الميل، ومنه زاغت الشمس، وزاغت الأبصار، ويقال زاغ يزيغ زيغا إذا ترك القصد ومنه قوله تعالى: " فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم"[14].

إن هذا الخليفة الجليل يعتبر أن ترك شيء من السنة قد يكون سببا في الخروج عن الجادة والقصد، أو في ذهاب شيء من العقل، وبالتالي قد يؤدي بالمسلم إلى نوع من الانحراف. نعم إنه رضي الله عنه على الرغم مما عرف به من فطنة وحلم، ورجاحة عقل، ورأي ثاقب وأصيل، فإنه كان يجتهد في الاهتداء بالسنة في كل صغيرة وكبيرة، وموقفه رضي الله عنه من أصحاب الردة خير دليل على ذلك، إذ لو احتكم إلى العقل والرأي والحكمة والوضع السياسي، لكان سلك سبيلا آخر، ولهذا قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما اعترض عليه:"... . والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو

---

[14] - سورة الصف، آية 5

منعوني عناقا كانوا يؤدونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على ذلك". [15]

إن أبا بكر رضي الله عنه عندما يخاف على نفسه أن يقوم بعمل أو يسلك مسلكا يكون العقل حده فيه قائدا، فإنه ينطلق من قناعة راسخة مفادها أن سنة من لا ينطق عن الهوى أولى بالاتباع والاسترشاد حتى في أدق الأمور. ومن هنا فليس المسلم الذي يتخذ محمدا صلى الله عليه وسلم قدوة ويغترف من عين السنة النبوية ويهتدي بهديها، ولا يعترض عليها، كالمسلم الذي يتخذ شيخا طرقيا قدوة ويغترف من عين عقله وروحه ويقتدي بسلوكه ولو كان سلوكا بدعيا.

هذا ويستفاد أيضا من قول أبي بكر رضي الله عنه: "... إني أخشى إن تركت شيئا من أمره أن أزيغ " أن تمام العقل مشروط بتمام السنة والهدي النبوي، أي كلما كان المسلم أعلم بالسنة، وأحفظ لها وأحرص على فعلها وممارستها، كان عقله أقرب إلى التمام والكمال والفكر الصحيح. ولذا نفى الله العقل عن المشركين والكافرين، قال تعالى." وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب

---

[15] - "إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء" الشيخ الخضري دار الفكر العربي بيروت 1992 ص 25.

السعير"[16]. وقال أيضا: " تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون"[17].

فنور العقل من نور السنة، وظلامه من ظلام الكفر أو الجهل أو البدعة."قال أبو عثمان الحيري: من أمر السنة على نفسه قولا وفعلا نطق بالحكمة، ومن أمر الهوى على نفسه نطق بالبدعة"[18]

ثم إن المسلم الذي لا يحرص على اتباع السنة وتعظيمها، يوشك أن يقع في البدعة، خاصة إذا كان إلى الجهل أميل. وكما أن نور السنة إذا دخل القلب وسطع في جوانبه، بدد كل ما فيه من ظلمة الضلالات والبدع، فكذلك ظلام البدعة إذا تمكن من القلب نفى عنه كل ما له علاقة بنور السنة.

" قال سفيان الثوري رحمه الله: البدعة أحب إلى إبليس من المعصية؛ المعصية يتاب منها، والبدعة لا يتاب منها. وقال الفضيل بن عياض: من جلس إلى صاحب بدعة أحبط الله

---

16 - سورة الملك، آية 10.

17 - سورة الحشر، آية 14

18 - أبو بكر جابر الجزائري؛ "هذا الحبيب محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ".

عمله وأخرج نور الإيمان – أو قال الإسلام– من قلبه" [19]. ثم إن ما تركه النبي صلى الله عليه وسلم من جنس العبادات ولم يفعله مع وجود المقتضي لفعله على عهده صلى الله عليه وسلم، ففعله بدعة، وتركه سنة، كالاحتفال بالمولد وإحياء ليلة الإسراء والمعراج، والهجرة، ورأس السنة، ونحوها، يدل على ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد"[20].

وخلاصة القول؛ إن إقامة السنة ومراعاتها والحفاظ عليها، يجعل الإنسان المسلم يحيا دائما في حال من الوعي الداخلي، واليقظة الشديدة وضبط النفس. ثم إن الانضباط السلوكي وفقا لتعاليم الرسول صلوات الله وسلامه عليه، المبثوثة في سننه الغراء، يقوي إرادة المسلم ويضاعف من طاقاته العقلية والروحية، فيغدو أكثر نشاطا وفاعلية ونفعا، وأقدر على القيام بوظيفة الاستخلاف. كما يساعده على التخلص من الأعمال والعادات والسلوكات التي تعرقل النشاط الإنساني، وتحول دون التعلم والتقدم. وهكذا من خلال إقامة السنة والحفاظ عليها، ومن خلال ذلك الانضباط

---

[19]- السيوطي: الأمر بالاتباع. . المرجع السابق ص 19.

[20] - رواه مسلم.

السلوكي وفقا لمبادئها وتعاليمها، تصبح شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم متغلغلة في كيان المسلم، ومؤطرة لسلوكه وحياته.

الأدب مع الرسول صلى الله عليه وسلم طريق المقتدي:

وهذا باب عظيم من أبواب السنة، من دخله نال الخير العميم وحظي بالنعيم المقيم، ومن أبى فهو إلى الشقاوة أميل وعن الخير أبعد. ولقد حث الشارع على هذا الأدب وأمر به في مطلع سورة الحجرات، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى: "يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله."

والأمر يفيد الوجوب كما هو معلوم عند علماء الأصول، وبالتالي فمن الواجب على المسلم أن يعظم شأن نبيه صلى الله عليه وسلم، ويتأدب معه كأنه حي بين أظهرنا، ويجتهد في اتباعه والاقتداء به. قال صاحب المواهب اللدنية: "فمن الأدب ألا يتقدم بين يديه بأمر ولا نهي، ولا إذن ولا تصرف حتى يأمر هو وينهى، ويأذن كما أمر الله بذلك في هذه الآية، وهذا باق إلى يوم القيامة لم يفسخ. فالتقدم بين يدي

سنته بعد وفاته كالتقدم بين يديه في حياته، لا فرق بينهما عند ذي عقل سليم"[21].

وهل ضل أكثر من ضل من المسلمين إلا بسبب التقدم بين يدي سنته صلى الله عليه وسلم، من خلال اتباع الأهواء والخيالات، وما تمليه النفوس من الأوهام والتصورات الخاطئة، وترجيح الآراء على نصوص السنة وأقوال النبي صلى الله عليه وسلم؟!!

لقد تجرأ هؤلاء الناس على نبيهم صلى الله عليه وسلم وسنته، فزلت أقدامهم وحبطت أعمالهم، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، فكيف يرجو الهدى من أعرض عن علم الهدى؟ بل كيف يستقيم حاله وهو يتخبط في متاهات الأهواء والآراء.

قال الإمام محمد بن قيم الجوزية رحمه الله: "فرأس الأدب معه: كمال التسليم له، والانقياد لأمره، وتلقي خبره بالقبول والتصديق، دون أن يحمله معارضة خيال باطل

---

[21]- شرح العلامة الزرقاني على "المواهب اللدنية بالمنح المحمدية" للعلامة القسطلاني الجزء الثامن ص 521 / دار الكتب العلمية بيروت 1996-1417 .

يسميه معقولا. أو يحمله شبهة وشكا، أو يقدم عليه آراء الرجال، وزبالات أذهانهم، فيوحده بالتحكيم والتسليم والانقياد والإذعان. كما وحد المرسِل سبحانه وتعالى بالعبادة والخضوع والذل والإنابة والتوكل. فهما توحيدان، لا نجاة للعبد من عذاب الله إلا بهما: توحيد المرسِل، وتوحيد متابعة الرسول، فلا يحاكم إلى غيره، ولا يرضى بحكم غيره، ولا يقف تنفيذ أمره وتصديق خبره على عرضه على قول شيخه وإمامه، وذوي مذهبه وطائفته ومن يعظمه."[22]

ويدخل أيضا في باب الأدب مع الرسول صلى الله عليه وسلم، تعظيمه وتوقيره، بل لا يتحقق المسلم بصفات الأدب معه صلى الله عليه وسلم، إلا إذا كان معظما وموقرا له. قال تعالى "إنّا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا"[23].

والتوقير اسم جامع لكل ما فيه سكينة وطمأنينة من الإجلال والإكرام، وأن يعامل من التشريف والتكريم والتعظيم بما يصونه عن كل ما يخرجه عن حد الوقار.

[22] - محمد بن قيم الجوزية؛ "مدارج السالكين"، ج 2، ص 436. دار الجيل، بيروت، د. ت.
[23] - سورة الفتح، آية 9.

وذكر القاضي أبو الفضل عياض كلاما جميلا متعلقا بتعظيم الإمام مالك رضي الله عنه للنبي صلى الله عليه وسلم – أسوقه كاملا بنصه: " قال مطرف: كان إذا أتى الناس مالكا خرجت إليهم الجارية فتقول لهم: يقول لكم الشيخ تريدون الحديث أو المسائل؟ فإن قالوا المسائل خرج إليهم وإن قالوا الحديث، دخل مغتسله واغتسل وتطيب ولبس ثيابا جددا، ولبس ساجه وتعمم ووضع على رأسه رداءه، وتلقى له منصة، فيخرج فيجلس عليها وعليه الخشوع، ولا يزال يبخر بالعود حتى يفرغ من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال غيره ولم يكن يجلس على تلك المنصة إلا إذا حدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال ابن أبي أويس فقيل لمالك في ذلك فقال أحب أن أعظم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أحدث به إلا على طهارة متمكنا.

قال وكان يكره أن يحدث في الطريق، أو وهو قائم أو مستعجل. وقال أحب أن أفهم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال ضرار بن مرة كانوا يكرهون أن يحدثوا على غير وضوء، ونحوه عن قتادة.

وكان الأعمش إذا حدث وهو على غير وضوء تيمم.

"قال عبد الله بن المبارك كنت عند مالك وهو يحدثنا، فلدغته عقرب ست عشرة مرة وهو يتغير لونه ويصفر ولا يقطع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم. فلما فرغ من المجلس وتفرق عنه الناس قلت له: يا أبا عبد الله لقد رأيت منك اليوم عجبا. قال نعم إنما صبرت إجلالا لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم". [24]

رضي الله عنك يا شيخنا الإمام مالك وطيب الله ثراك، فقد أحببت النبي صلى الله عليه وسلم، وعظمت كلامه، وتأدبت بأدبه، ونشرت سنته الغراء.

ويدخل في باب الأدب مع الرسول صلى الله عليه وسلم، الثناء عليه بما هو أهله. وأفضل ذلك الصلاة والسلام عليه، قال تعالى: "إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما "[25]. والإكثار من ذكره

---

[24] - الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ... المرجع السابق، ج 2، ص 29.

[25] - سورة الأحزاب، آية 58.

والتشوق إليه، وتعداد فضائله وخصائصه ومعجزاته ودلائل نبوته، وتعريف الناس بسنته وتعليمهم إياها، وتذكيرهم بمكانته ومنزلته وحقوقه، وذكر أخلاقه وصفاته وخلاله، وما كان من أمور دعوته وسيرته وغزواته، والتمدح بذلك شعرا ونثرا.

وكذلك التأدب عند ذكره صلى الله عليه وسلم بأن لا يذكر باسمه مجردا، بل يوصف بالنبوة أو الرسالة، وهذا كما كان أدبا للصحابة رضي الله عنهم في ندائه فهو أدب لهم ولغيرهم عند ذكره، فلا يقال: محمد، ولكن: نبي الله أو رسول الله، ونحو ذلك.

كما يدخل في باب الأدب مع الرسول صلى الله عليه وسلم، توقير كلامه وحديثه عند سماعه والوقار عند دراسته. ولعل من ثمرات تعظيم المسلم للرسول صلى الله عليه وسلم، وتوقيره والتأدب معه، حصول محبته في قلبه والإكثار من ذكره والصلاة عليه وهو ما سأتناوله في ما يلي.

محبة الرسول صلى الله عليه وسلم زاد المقتدي:

"لا يعرف التاريخ غير محمد صلى الله عليه وسلم رجلا أفرغ الله وجوده في الوجود الإنساني كله، كما تتصل

المادة في المادة، لتمتزج بها، فتحدث منها الجديد، فإذا الإنسانية تتحول به وتنمو، وإذا هو صلى الله عليه وسلم وجود سار فيها فما تبرح هذه الإنسانية تنمو به وتتحول.

كان المعنى الآدمي في هذه الإنسانية كأنما وهن من طول الدهر عليه، ... فابتعث الله تاريخ العقل بآدم جديد بدأت به الدنيا في تطورها الأعلى من حيث يرتفع الإنسان على ذاته، كما بدأت من حيث يوجد الإنسان في ذاته؛ فكانت الإنسانية دهرها بين اثنين: أحدهما فتح لها طريق المجئ من الجنة، والثاني فتح لها طريق العودة إليها: كان في آدم سر وجود الإنسانية، وكان في محمد صلى الله عليه وسلم، سر كمالها"[26].

إذا كان إنسان يحب إنسانا آخر لسبب من الأسباب، أو لأجل مصلحة معينة، فإن العبد المسلم المطيع لا يسعه إلا أن يحب نبيه أشد محبة ويوقره أعظم توقير، لما في ذلك من تحقيق السعادة الدنيوية والأخروية. فلا تتيسر مصالح المسلمين على الوجه المناسب والأكمل إلا من طريق محبتهم له صلى الله عليه وسلم. ذلك لأن رسولنا الكريم قد بين من

---

[26] - مصطفى صادق الرافعي، "وحي القلم"؛ ج1، ص304، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1422-2001،

خلال حياته ومعاملاته، وسننه الطاهرة، الطريق التي ينبغي أن يسلكها المسلم كي ينجو من عذاب الله في الدنيا والآخرة. وهل هناك غاية أجل من هذه الغاية ؟

ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم، بصفاته المحمودة ومحاسنه السامية وفضائله المتعددة وأخلاقه الرضية، يدعو المسلم الحق لأن يحبه ويجله ويعظمه بقلبه ولسانه؛ قال الدكتور محمد دراز: " ومحبة الله ورسوله هي أرقى أنواع هذه المحبة العقلية وأقواها، فمن كان باعث المحبة عنده معرفة ما في المحبوب من كمال ذاتي، فالله تعالى أحق بمحبته؛ إذ الكمال خاصة ذاته، والجمال الأتم ليس إلا لصفاته، والرسول صلى الله عليه وسلم أحق من يتلوه في تلك المحبة؛ لأنه أكرم الخلق عند ربه، وهو ذو الخلق العظيم والهدي القويم، ومن كانت محبته للغير تقاس بمقاس ما يوصله إليه ذلك من الغير من المنافع، وما يغدق إليه من الخيرات، فالله تعالى أحق بهذه المحبة أيضا، وإن نعمه علينا تجري مع الأنفاس ودقات القلوب، ولا نعمة إلا هو مصدرها، "وما بكم من نعمة فمن الله؛ (النحل53)، "وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها" (النحل 18)، وهذا الرسول الكريم الرؤوف الرحيم هو واسطة النعمة العظمى، إذ هو

الذي أخرجنا الله به من الظلمات إلى النور ومن الضلالة إلى الهدى، واستنقذنا به من النار بعد أن كنا على شفا حفرة منها؛ فليس بعد الله أحد أمن علينا منه، ومحبته الحقيقية شعبة من محبة الله" [27]

كما أن محبته واجبة بنص الكتاب؛ قال تعالى: " قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين"[28]. فهذه الآية تدل دلالة صريحة على وجوب محبة النبي صلى الله عليه وسلم. بل إن الله سبحانه وتعالى يتوعد الذين يفضلون آباءهم وأبناءهم... ومتاعهم على خالقهم وعلى رسوله، كما ينعتهم بالفسق والعياذ بالله.

ومن علامات محبة العبد المسلم لنبيه صلى الله عليه وسلم؛ طاعته فيما أمر ونهى، والاقتداء به واقتفاء أثره، ومحبة ما جاء به ودعا إليه، وكذا ذكره والشوق إليه. قال

---

[27] د. محمد عبد الله دراز؛المختار من كنوز السنة، ص 344، 345

[28] - سورة التوبة، آية 24

رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين"[29].

وقال الإمام الحافظ أحمد بن حجر العسقلاني: " وفي هذا الحديث إيماء إلى فضيلة التفكر، فإن الأحبية المذكورة تعرف به، وذلك أن محبوب الإنسان إما نفسه وإما غيرها. أما نفسه فهو أن يريد دوام بقائها سالمة من الآفات، هذا هو حقيقة المطلوب. وأما غيرها فإذا حقق الأمر فيه فإنما هو بسبب تحصيل نفع ما على وجوهه المختلفة حالا ومآلا.

فإذا تأمل النفع الحاصل له من جهة الرسول صلى الله عليه وسلم، الذي أخرجه من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، إما مباشرة وإما بالسبب، علم أنه سبب بقاء نفسه البقاء الأبدي في النعيم السرمدي، وعلم أن نفعه بذلك أعظم من جميع وجوه الانتفاعات، فاستحق لذلك أن يكون حظه من محبته أوفر من غيره، ولكن الناس يتفاوتون في ذلك بحسب استحضار ذلك والغفلة عنه."[30]

---

[29] ـ حديث صحيح، ذكره البخاري في كتاب الإيمان

[30] ـ أحمد بن حجر العسقلاني؛ "فتح الباري..."، ج1، ص 83. المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، ط1، 1420-2000.

ولعل من أقوى أسباب جلب محبة النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى القلب؛ الإكثار من ذكره والصلاة والسلام عليه، فإن الإنسان كلما أكثر من ذكر محبوبه واستحضاره في قلبه، قوى تعلقه به واشتاق إلى رؤيته والجلوس معه، ولا شئ أقر لعين العبد المسلم الذاكر من رؤية ربه تعالى، ورؤية نبيه صلوات الله وسلامه عليه. وهكذا إذا أكثر العبد المسلم من ذكر رسوله وحبيبه، والتفكر في أخلاقه وشيمه وسنته، استقر حبه في قلبه، واستولى على كيانه، مما يعينه على التأسي به والدعوة إلى اتباع سنته. لكن قوما ادعوا محبة الرسول صلى الله عليه وسلم بأفواههم، ولم يعملوا بكلامه ولا بأفعاله، بل خالفوا سنته وابتدعوا أذكارا وصلوات، ونظموا أشعارا في مدحه، وراحوا يتباكون ويتغنون بها في مناسبات معينة، وهم يحسبون أنهم بذلك يتقربون إلى الله ورسوله، وشتان بين زفرات الثكلى ودموع النائحة وبين البكاء والمكاء.

محبة الصحابة واقتفاء أثرهم

لقد أثنى الله سبحانه وتعالى على الصحابة ورضي عنهم ووعدهم الحسنى، قال تعالى "والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله

عنهم ورضوا عنهم"[31]. وقال تعالى أيضا "محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم، تراهم ركعا سجدا"[32]. وأثنى سبحانه على المهاجرين والأنصار والذين جاءوا من بعدهم حيث قال في سورة الحشر: " للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون والذين تبوؤوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون والذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم"[33]

"وما أحسن قول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه حيث قال:من كان منكم مستنا فليستن بمن قد مات، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كانوا أفضل هذه الأمة، أبرها قلوبا، وأعمقها علما، وأقلها تكلفا، قوم اختارهم لصحبة نبيه وإقامة دينه، فاعرفوا

---

[31] - سورة التوبة، آية 100.

[32] - سورة الفتح، آية 29

[33] - سورة الحشر، آية 8-9-10.

لهم فضلهم، واتبعوهم في آثارهم، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم ودينهم، فإنهم كانوا على الهدي المستقيم" [34]

وروى ابن ماجة عن عوف بن مالك رضي الله عنه:"افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، فواحدة في الجنة، وسبعون في النار، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، فإحدى وسبعون في النار وواحدة في الجنة، والذي نفس محمد بيده: لتفترقن أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، واحدة في الجنة واثنتان وسبعون في النار، قيل يا رسول الله، من هم؟ قال الجماعة"[35]

وروى الترمذي عن عبد الله بن عمرو: "وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة، كلها في النار إلا ملة واحدة: ما أنا عليه وأصحابي"[36]

إن نبينا صلى الله عليه وسلم عندما يقول."ما أنا عليه وأصحابي" يشير إلى أن النجاة يوم القيامة مشروطة ورهينة

---

[34]- شرح العقيدة الطحاوية للعلامة ابن أبي الخير الحنفي، صغتها وراجعتها جماعة من العلماء، خرج أحاديثها محمد ناصر الدين الألباني/ بيروت ط 9. 1408/1988، ص 383.

[35]- سنن ابن ماجة (1322/2)

[36] - انظر "تحفة الأحوذي" 7-399-400.

باتباع سنته وسنة من اصطفاهم الله مــن الخليقــة وجعلهــم أصحابه، فلا يمكن اتباع الرسول دون اتباع الصحابة وحبهم واقتفاء آثارهم، لأنهم أفضل من تسنن بسنة النبي صــلى الله عليه وسلم، وأحسن من تفقه فيها وعلم مغزاهــا وغايتهــا، "ويدل على هذا المعنى قوله تعالى: "ومن يشاقق الرسول من بعدما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا"، وهي تفيد بمفهومها أن كــل من اتبع غير سبيل المؤمنين فقد شاق الرسول ولابد، ومــن شاقه صلى الله عليه وسلم فقد اتبع غير سبيلهم يقينا، إذا فكل من اتبع غير سبيل المؤمنين،- والمؤمنون هــم الــصحابة أصلا، ومن تبعهم فهو تبع لهم،- فقد شاق الرسول صلى الله عليه وسلم واستحق صلي جهنم في الآخرة"[37]

وبنفس المعنى ينطق حديث العرباض بن سارية، فقــد قال النبي صلى الله عليه وسلم: "أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن أمر عليكم عبد حبشي، فإنه من يعــش مــنكم فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشــدين

---

[37]_ أحمد سلام: "ما أنا عليه وأصحابي" دراسة في أسباب افتراق الأمة... . / دار ابن حزم بيروت 1996/1416، ص51.

المهديين، عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمـــور، فإن كل بدعة ضلالة"[38]

وروى أبو داود في سننه عن حذيفة رضي الله عنـــه، قال: كل عبادة لم يتعبد بها أصحاب رســـول الله صـــلى الله عليه وسلم فلا تتعبدوا بها، فإن الأول لم يدع للآخر مقـــالا، فاتقوا الله يا معشر القراء، خذوا طريق من كان قبلكم"[39].

نعم كيف يمكن لمسلم أتى بعد الصحابة رضـــوان الله عليهم بقرون طويلة، وشرع في سن طرق جديدة في السلوك والعبادة، وابتدع أساليب في ذلك لـــم تكـــن معهـــودة لـــدى الصحابة الكرام، مدعيا أن هذا الاجتهاد الذي تفتق عليه ذهنه وجادت به قريحته، هو فتح من الله سبحانه وتعالى ونفحة من نفحاته؟!! أليس هذا يعني أن صاحبنا (المجتهد) قد اســـتثقل عبادة الصحابة، أو أنه قد اطلع على ما لم يطلعوا عليـــه، أو فاقهم في أمور وأشياء وأسرار متعلقة بالعبادة والتقرب إلـــى الله ؟!! والحال أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا ينهلون من مشكاة النبوة ويتلقون مظاهر العبادة وأسرارها مباشـــرة عن النبي صلى الله عليه وسلم، فهم أولى الناس بعد نبـــيهم

---

[38]– رواه الحاكم وقال حديث صحيح.
[39]– الأثر أخرجه أبو داود في سننه، كتاب السنة باب 28

بالتفقه فيها وضبط معالمها ورسم حدودها، والمسلمون تبع لهم في ذلك ولا يسعهم إلا الاقتداء بهم واقتفاء أثرهم.

وبالمناسبة أسوق كلاما للفقيه الأصولي أبي إسحاق الشاطبي يلامس صلب الموضوع ويعضد قواعده. قال رحمه الله في كتابه "الموافقات في أصول الشريعة": "سنة الصحابة رضي الله عنهم سنة يعمل عليها، ويرجع إليها. ومن الدليل على ذلك أمور:

أحدها: ثناء الله عليهم، ومدحهم بالعدالة وما يرجع إليها، كقوله تعالى: "كنتم خير أمة أخرجت للناس" (آل عمران؛110)، وقوله: "وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويَكون الرسول عليكم شهيدا" (البقرة؛143)... . ولا يقال: إن هذا عام في الأمة، فلا يختص بالصحابة دون من بعدهم. لأنا نقول: أولا ليس كذلك؛ بناء على أنهم المخاطبون على الخصوص، ولا يدخل معهم من بعدهم إلا بقياس وبدليل آخر.

والثاني: ما جاء في الحديث من الأمر باتباعهم، وأن سنتهم في طلب الاتباع كسنة النبي صلى الله عليه وسلم، كقوله: " فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين. ".

والثالث: أن جمهور العلماء قدموا الصحابة عند ترجيح الأقاويل، فقد جعل طائفة قول أبي بكر وعمر حجة ودليلا، وبعضهم عد قول الخلفاء الأربعة دليلا، وبعضهم يعد قول الصحابة على الإطلاق حجة ودليلا.[40]

يستفاد من كلام العلامة الأصولي أبي إسحاق الشاطبي، أن الصحابة رضوان الله عليهم أعلم الناس بمقاصد الدين والشريعة، وبأصول العقيدة وموازين المصلحة والمفسدة، ولذلك كان كلامهم حجة ودليلا، واجتهادهم مرجعا وأصلا في فهم الكتاب والسنة والعمل بهما، كيف لا وهم حفظة السنة ونقلتها وأعلم الناس باللغة وبيانها، وبمنهج رسول الله صلى الله عليه وسلم في تفسير القرآن وتأويله.

والخلاصة أن كتاب الله تعالى وسنة رسوله وسنة الصحابة رضوان الله عليهم، "هو الميزان الجامع الذي توزن به العقائد والأصول والأقوال والأفعال والاجتهادات". ومن ثم فإن القدوة الصحيحة التي ينبغي للمسلم أن يتأسى بها ويعض عليها بالنواجذ، هي التي تمثلت في النبي صلى الله عليه وسلم وتجسدت في أصحابه الأطهار الميامين. أما ما سوى

---

[40] - الموافقات في أصول الشريعة... المرجع السابق، ج 4، ص 55-57-56.

ذلك فزيغ وضلال ووهم وتخمين وتلبيس من تلبيس إبليس، وقانا الله شره وكيده آمين والحمد لله رب العالمين.

المبحث الثاني

مفهوم القدوة عند الصوفية

لعل من نافلة القول أن شيخ الطريقة يعتبر العمود الفقري لكل طريقة صوفية، فالشيخ كلما كان متمتعا بصفات وأحوال نفسية وروحانية متميزة، اكتسبت طريقته مزيدا من الصيت والذيوع وكثر مريدوها. وإن من أصول أصحاب الطرق، ضرورة وجود شيخ مأذون له أو لمن ينوب عنه في إعطاء الورد للمريد. وينظر المريدون إلى شيخهم نظرة المريض إلى الطبيب؛ فكما أن لأمراض البدن طبيبا مختصا في علاجها، كذلك الأمر فيما يتعلق بأمراض النفس وعلل القلوب، إذ يتصدى لها الشيخ الصوفي ويعالجها بما أوتي من علوم ومعارف وأحوال يستطيع بواسطتها استكشاف نفسية المريض، والوصول إلى مكامن الداء والمرض في قلبه، ثم يصف له العلاج ويداويه بما يناسبه من الدواء.

ويجب على المريد كي يحقق ما يريد تحقيقه، أن يتأدب مع شيخه كل الأدب، ويطيعه فيما أمر ونهى، ويكن له الاحترام والتعظيم.

قال محيي الدين بن عربي في أول الباب الواحد والثمانين بعد المائة من كتاب "الفتوحات المكية":

ما حرمة الشيخ إلا حرمة الله (؟!!)
فقم بها أدبا لله بالله
هم الأدلاء والقربى تؤيدهم
على الدلالة تأييدا على الله
كالأنبياء تراهم في محاربهم
لا يسألون من الله سوى الله
فإن بدا منهم حال تولههم
عن الشريعة فاتركهم مع الله (؟!!)

وقال أبو حامد الغزالي: " فكذلك المريد يحتاج إلى شيخ وأستاذ يقتدي به لا محالة ليهديه إلي سواء السبيل، فإن سبيل الدين غامض (؟!!) وسبل الشيطان كثيرة ظاهرة، فمن لم يكن له شيخ يهديه قاده الشيطان إلى طرقه لا محالة، فمن سلك سبيل البوادي المهلكة بغير خفير فقد خاطر بنفسه وأهلكها، ويكون المستقل بنفسه كالشجرة التي تنبت بنفسها، فإنها تجف على القرب، وإن بقيت مدة وأورقت لم تثمر. فمعتصم المريد بعد تقديم الشروط المذكورة شيخه، فليتمسك

به تمسك الأعمى على شاطئ النهر بالقائد... ، وليعلم أن نفعه في خطأ لو أخطأ أكثر من نفعه في صواب نفسه لو أصاب (؟!!)، فإذا وجد مثل هذا المعتصم وجب على معتصمه أن يحميه ويعصمه بحصن حصين يدفع عنه قواطع الطريق وهو أربعة أمور: الخلوة، والصمت، والجوع، والسهر."[41]

ويقول محمد الرفاعي الصيادي في كتابه "قلادة الجواهر": "ومن آداب المريد اللازمة أولا: حفظ قلب شيخه، ومراعاته في الغيبة والحضور... والتواضع له ولذريته وأقاربه، وثبوت القدم على خدمته، وأوامره كليها وجزئيها، وربط القلب به، واستحضار شخصه في قلبه في جميع المهمات، واستمداد همته، والفناء فيه، وأن يكون ملازما له لا يفتر عنه طرفة عين، ولا ينكر عليه ما ظهر منه من صفة عيب، فلربما يظهر من الشيخ ما لا يعلمه المريد (؟!!)"[42].

---

[41] - أبو حامد الغزالي؛ "إحياء علوم الدين"، ج 3، ص112-113، دار الحديث القاهرة، 1419-1998.

[42] - محمد أبو الهدى الصيادي؛ "قلادة الجواهر في ذكر الغوث الرفاعي وأتباعه الأكابر"، ص 278، ط. الأولى، 1400-1980، بيروت.

ثم إن المريد لا يتعلق قلبه بشيخ سوى شيخه، ويفرده بالتعظيم والتبجيل ويتخذه وحده قبلة وقدوة. قال عبد الوهاب الشعراني: "ومن شأنه أن لا يكون له إلا شيخ واحد، فلا يجعل له قط شيخين؛ لأن مبنى طريق القوم على التوحيد الخالص، وقد ذكر الشيخ محيي الدين في الباب الأحد والثمانين ومائة من "الفتوحات المكية" ما نصه: "اعلم أنه لا يجوز لمريد أن يتخذ إلا شيخا واحدا لأن ذلك أعون له في الطريق، وما رأينا مريدا قد أفلح على يد شيخين، فكما أنه لم يكن وجود العالم بين إلهين ولا المكلف بين رسولين ولا امرأة بين زوجين، فكذلك المريد لا يكون بين شيخين"[43]

وقال عبد المجيد بن محمد الخاني النقشبندي في كتابه " السعادة الأبدية": "اعلم أيها الأخ المؤمن أن الرابطة عبارة عند ربط القلب بالشيخ الكامل، ... وحفظ صورته بالخيال ولو عند غيبته أو بعد وفاته ولها صور؛ أهونها أن يتصور المريد صورة شيخه الكامل بين عينيه، ثم يتوجه إلى روحانيته في تلك الصورة، ولا يزال متوجها إليها بكليته حتى يحصل له الغيبة أو أثر الجذب... وهكذا يداوم على

---

43 - عبد الوهاب الشعراني؛ "الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية"، ج1، ص40، المكتبة العلمية، بيروت، 1412-1992.

الرابطة حتى يفنى عن ذاته وصفاته في صـــورة الـــشيخ... فتربيه روحانية الشيخ بعد ذلك إلى أن توصله إلى الله تعالى، ولو كان أحدهما في المشرق والآخر في المغرب، فبالرابطة يستفيض الأحياء من الأموات المتصرفين(؟!!)"[44].

لا شك أن القارئ الكريم قد فهـــم مـــن خـــلال هـــذه النصوص جانبا مهما من جوانب العلاقة التي تربط المريـــد بشيخه الطرقي، والتي تبدأ بأصناف التأدب والاحترام وتنتهي بالغيبة والفناء في صورة شيخه التي لا تفارق خياله طرفـــة عين، ومن هنا لا يعجب المرء إذا ســـمع بمريـــد يـــستغيث بشيخه ويستنجده وهو غائب عنه أو قد ارتحل إلى الآخرة.

نقد مفهوم القدوة عند الصوفية

إن أسلوب التلقي الذي ينتهجـــه المريـــد مـــع شـــيخه الطرقي، لا يخلو من عيوب معرفية وتربوية وأخطاء تعبدية وشرعية، ذلك أن هذه العلاقة تجعل المريد محـــصورا فـــي دائرة مغلقة بحيث يكون الشيخ بمثابـــة النـــواة المركزيـــة، والمريدون عبارة عن إلكترونات تحوم حولها، ومن ثم فـــإن

[44] - عبد المجيد ألخاني ا لخالدي النقشبندي؛ "السعادة الأبدية فيما جاء به النقشبندية"، ص. 22-23، إسطنبول 1401-1981.

المعارف والأفكار التي يكتسبها المريد يستمدها من روح شيخه وشخصيته؛ إما يقظة وإما مناما، فيتشكل عنده نمط فكري واحد ينتظم من خلاله وبواسطته تصوره الوجودي والكوني، وكذا حياته الاجتماعية والدينية. وهكذا تغدو عين الشيخ المصدر الوحيد للإلهامات والإشراقات المعرفية، وبما أن المريد ينظر إلى شيخه الطرقي بعين الرضا والمحبة والتقديس، فإن عقله عاجز عن إدراك ما يمكن أن يصدرعنه من أخطاء وهفوات، وكيف يصدر ذلك عن الشيخ الكامل والقطب الرباني صاحب الأحوال والمقامات ؟!!. فالدين هو ما يفهمه شيخه، والعبادة هي التي يمارسها ويدعو إليها.

" وخير الشيوخ الصالحين، وأولياء الله المتقين: أتبعهم له وأقربهم وأعرفهم بدينه وأطوعهم لأمره: كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي. وسائر التابعين بإحسان، وأما الحسب فلله وحده ولهذا قالوا (حسبنا الله ونعم الوكيل)، ولم يقولوا ورسوله... فليس لأحد أن يدعو شيخا ميتا أو غائبا: لا من الأنبياء ولا غيرهم، فلا يقول لأحدهم: ياسيدي فلان أنا في حسبك أو في جوارك، ولا يقول بك أستغيث وبك أستجير"[45]

---

45 ـ أحمد بن تيمية؛ "فتاوى ابن تيمية"، ج 11، ص 498-499، د. ت، د. ط.

ومما له علاقة بأسلوب التلقي المشار إليه، ما يتلقاه المريد عن شيخه من الأوراد التي بواسطتها يتقوى قلبه وتصبو نفسه نحو الترقي في الأحوال والمقامات، بيد أن هذا الترقي كثيرا ما يؤدي بصاحبه إلى الوقوع في الجذب أوالفناء، مما قد يدفع به إلى العزلة التامة عن المجتمع، وهذا ما لا يحصل للمسلم الذي يذكر الله كما أمر، وكما بين نبيه محمد صلوات الله وسلامه عليه، في سنته المطهرة. "وكذلك العباد: إذا تعبدوا بما شرع الله من الأقوال والأعمال ظاهرا وباطنا، وذاقوا طعم الكلم الطيب والعمل الصالح الذي بعث الله به رسوله، لوجدوا في ذلك من الأحوال الزكية والمقامات العلية والنتائج العظيمة، ما يغنيهم عما قد حدث من نوعه كالتغبير ونحوه من السماعات المبتدعة الصارفة عن سماع القرآن، وأنواع من الأذكار والأوراد لفقها بعض الناس"[46]

قال الإمام الأصولي أبو إسحاق الشاطبي:

"إن اتباع الهوى طريق إلى المذموم، وإن جاء في ضمن المحمود؛ لأنه إذا تبين أنه مضاد بوضعه لوضع الشريعة، فحيثما زاحم مقتضاها في العمل كان مخوفا. أما

---

[46] - أحمد بن تيمية؛ "اقتضاء الصراط المستقيم"، ص 282، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرباط، 1419.

أولا ؛ فإنه سبب تعطيل الأوامر وارتكاب النواهي، لأنه مضاد لها. وأما ثانيا ؛ فإنه إذا اتبع واعتيد ربما أحدث للنفس ضراوة وأنسا به، حتى يسري معها في أعمالها، ولاسيما وهو مخلوق معها ملصق بها في الأمشاج. فقد يكون مسبوقا بالامتثال الشرعي فيصير سابقا له، وإذا صار سابقا له صار العمل الامتثالي تبعا له وفي حكمه، فبسرعة ما يصير صاحبه إلى المخالفة، ودليل التجربة حاكم هنا.

وأما ثالثا ؛ فإن العامل بمقتضى الامتثال من نتائج عمله الالتذاذ بما هو فيه، والنعيم بما يجتنيه من ثمرات الفهوم، وانفتاح مغاليق العلوم. وربما أكرم ببعض الكرامات، أو وُضِع له القبول في الأرض فانحاش الناس إليه، وحلقوا عليه، وانتفعوا به، وأموه لأغراضهم المتعلقة بدنياهم وأخراهم..."[47]

لاحظ معي أيها القارئ اللبيب كيف نبه المحقق الأصولي أبو إسحاق على هذه المسألة الدقيقة، وبين فيها أن اتباع الهوى يجر المسلم إلى المذموم وإن جاء في ضمن المحمود. فالشيخ الطرفي الذي وضع أورادا وصيغا للذكر

---

[47]- أبو إسحاق الشاطبي؛ "الموافقات في أصول الشريعة"، المجلد 1، الجزء 2، ص 133-134، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت..

على طريقة غير طريقة الشرع الحكيم، وعلى منهج لا عهد لأصحابه والتابعين به، يكون قد ابتدع في أمر تعبدي وقفي لا مجال فيه للاجتهاد أو إبداء الرأي، وإن بدا له أن هذه الأوراد والأذكار تدور في فلك ما هو محمود ومحبب إلى الله سبحانه. وهذا باب من الأبواب التي سلكها كثير من السالكين والعباد فزلت فيها أقدامهم.

بين شيخ العلم والتعليم وشيخ التربية:

بعد هذا الكلام الموجز حول مفهوم القدوة عند الشيخ الطرقي، وعن أسلوب التلقي المعتمد بين المريد وشيخه، وعن طبيعة الأوراد والأذكار التي يضعها شيوخ الطرق الصوفية، وماذا قال في شأنها بعض العلماء والفقهاء. . أنتقل إلى مناقشة مفهوم الشيخ الطرقي باعتباره شيخ تربية. وهل يتوجب على المسلم المتعلم أن يتخذ شيخا من شيوخ التربية يسلك به طريقة معينة في العبادة وتزكية النفس أم يقتصر على شيوخ العلم والتعليم ويتفقه على أيديهم ؟.

ليس مثلي من يجيب عن هذا السؤال أو يحسم في هذه المسألة، ولكني "أعطي القوس باريها" كما قال الشاعر:

يا باري القوس بريا ليس تحسنه
لا تفسدَنْها وأعط القوس باريها

أقول وبالله التوفيق: ذكر عبد الفتاح أبو غدة في هامش من هوامش تحقيقه لكتاب "رسالة المسترشدين" لأبي عبد الله الحارث المحاسبي، ما نصه:

"وقد كتب الإمام الفقيه الأصولي المحدث النظار أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي الغرناطي، صاحب كتاب "الموافقات" و"الاعتصام" وغيرهما من الكتب النفيسة الباهرة، المتوفى سنة 790، من غرناطة قاعدة الأندلس، إلى شيخ الصوفية في عصره أبي عبد الله محمد بن عباد النفزي، خطيب جامع القرويين في مدينة فاس، المتوفى سنة 792 رحمهما الله تعالى. كتب إليه يسأله عن مسألة وقعت في غرناطة، واختلف فيها أنظار العلماء، وكثر فيها القيل والقال، وهي: هل على السالك الى الله تعالى أن يتخذ -لزاما- شيخ طريقة وتربية يسلك على يديه؟ أم يسوغ له أن يكون سلوكه إلى الله تعالى من طريق التعلم والتلقي من أهل العلم دون أن يكون له شيخ طريقة؟.

فكتب إليه الشيخ ابن عباد رحمه الله تعالى كتابة العالم المنصف المخلص، فقال له ما خلاصته: كما في كتابه "الرسائل الصغرى[48] ص 106 وما بعدها وص 125 وما بعدها "الشيخ المرجوع إليه في السلوك ينقسم إلى قسمين: شيخ تعليم وتربية، وشيخ تعليم بلا تربية.

فشيخ التربية ليس ضروريا لكل سالك، وإنما يحتاج إليه من فيه بلادة ذهن واستعصاء نفس(!!؟) وأما من كان وافر العقل منقاد النفس، فليس بلازم في حقه، وتقيده به من باب الأولى. وأما شيخ التعليم فهو لازم لكل سالك.

---

[48] - ولقد بحثت في المكتبات عن كتاب "الرسائل الصغرى" لابن عباد، فلم أعثر عليه, كما تحدثت في شأنه مع بعض الأساتذة الباحثين الذين أخبروني أن تلك الرسائل تكاد تكون مفقودة. وذات يوم بينما كنت أبحث عن كتاب في جناح الفلسفة والتصوف بمكتبة كلية الآداب بتطوان، إذا بي أظفر ببغيتي، فحمدت الله وأخذت الكتاب وشرعت أبحث عن النص المستشهد به في هذا المقال، فوجدته يشمل الصفحة 131بأكملها، وجزءا من الصفحة 132. والكتاب تحت عنوان : "الرسائل الصغرى لابن عباس الرندي"، تحقيق ونشر الأب بولس نويا اليسوعي/ دار المشرق – بيروت 1986. وابن عباد هذا كما جاء في مقدمة الطبعة الأولى؛ هو الشيخ الصوفي أبو عبد الله محمد بن عباد النفزي الحميرى الرندي (733-792ه) (1332-1390م).

[48] - حديث صحيح رواه البخاري.

أما كون شيخ التربية لازما لمن ذكرناه من السالكين فظاهر، لأن حجب أنفسهم كثيفة جدا، ولا يستقل برفعها وإماطتها إلا الشيخ المربي، وهم بمنزلة من به علل مزمنة، وأدواء معضلة من مرض الأبدان، فإنهم لا محالة يحتاجون إلى طبيب ماهر يعالج عللهم بالأدوية القاهرة.

وأما عدم لزوم الشيخ المربي لمن كان وافر العقل منقاد النفس، فلأن وفور عقله وانقياد نفسه يغنيانه عنه، فيستقيم له من العمل بما يلقيه إليه شيخ التعليم ما لا يستقيم لغيره. وهو واصل بإذن الله تعالى، ولا يخاف عليه ضرر يقع له في طريق السلوك إذا قصده من وجهه، وأتاه من بابه.

واعتماد شيخ التربية هو طريق الأئمة المتأخرين من الصوفية، واعتماد شيخ التعليم هو طريق الأوائل منهم. ويظهر هذا من كتب كثير من مصنفيهم، كالحارث المحاسبي، وأبي طالب المكي، وغيرهما، من قبل أنهم لم ينصوا على شيخ التربية في كتبهم على الوجه الذي ذكره أئمة المتأخرين، مع أنهم ذكروا أصول علوم القوم وفروعها، وسوابقها ولواحقها، لا سيما الشيخ أبو طالب، فعدم ذكرهم له دليل على عدم شرطيته ولزومه في طريق السلوك.

وهذه هي الطريقة السابلة – أي المسلوكة- التي انتهجتها أكثر السالكين، أشبه بحال السلف الأقدمين، إذ لم ينقل عنهم أنهم اتخذوا شيوخ التربية، وتقيدوا بهم والتزموا معهم ما يلتزمه التلامذة مع الشيوخ المربين، وإنما كان حالهم اقتباس العلوم، واستصلاح الأحوال بطريق الصحبة والمؤاخاة بعضهم لبعض. ويحصل لهم بسبب التلاقي والتزاور مزيد عظيم يجدون أثره في بواطنهم وظواهرهم، ولذلك جالوا في البلاد، وقصدوا إلى لقاء الأولياء والعلماء والعباد"[49].

يستفاد من جواب محمد بن عباد النفزي شيخ الصوفية في عصره، أن شيخ التعليم هو المعول عليه في تحصيل العلوم والمعارف، وهو قبلة كل سالك يسلك سبيل العلم والاستقامة ويريد التزود للدار الآخرة. والأحاديث النبوية في طلب العلم وكتابته وتحصيله وارتياد مجاله كثيرة جدا. كما أن علماء الأمة وفقهاءها كتبوا في هذا الموضوع رسائل ومصنفات عديدة، والنبي صلى الله عليه وسلم أشار في أحاديثه إلى قدر العالم وأهميته وعلو مرتبته، وكونه أفضل

---

[49] - عبد الفتاح أبو غدة؛ تحقيق "رسالة المسترشدين"، ص 39-40، دار السلام، ط. 5، 1409-1988

من العابد، لأنه يفقه الناس ويعلمهم أمور دينهم ودنياهم. وإذا استقرأنا هذه الأحاديث المتعلقة بالعلم والعلماء لا نجد فيها ذكرا لشيخ التربية أو الطريقة، لأن العلماء الأتقياء الربانيين المشار إليهم في الأحاديث النبوية هم أولى الناس بتربية السالكين المتعلمين، فهم يقذفون في قلوب المتعلمين علوم الكتاب والسنة وغيرها من العلوم، مصحوبة بالخشية والتواضع واستحضار عظمة الله سبحانه، إلى غير ذلك من المعاني الروحية والإيمانية التي تنور قلوب أولئك المتعلمين، فيتعلمون العلوم والمعارف كما يتعلمون مبادئ التربية، والاستقامة، والأخلاق الحسنة، ومحبة الله ورسوله. لهذا جاء في نص الجواب:" وهذه هي الطريقة السابلة أي المسلوكة التي انتهجها أكثر السالكين، وهي أشبه بحال السلف الأقدمين، إذ لم ينقل عنهم أنهم اتخذوا شيوخ التربية وتقيدوا بهم، وإنما كان حالهم اقتباس العلوم واستصلاح الأحوال بطريقة الصحبة والمؤاخاة بعضهم لبعض. "وفي قوله رحمه الله "اعتماد شيخ التربية هو طريقة الأئمة المتأخرين من الصوفية، واعتماد شيخ التعليم هو طريق الأوائل منهم يذكرنا بحديث النبي صلى الله عليه وسلم: " خير الناس قرني ثم

الذين يلونهم "[50]. فالأولى اعتماد شيخ التعليم لأنه الأصل، أما شيخ التربية فلم يكن له ذكر في القرون الأولى وإنما ظهر في القرون المتأخرة بسبب استشراء داء البلادة وتكاثر أصحاب الحجب والعلل النفسية، وأمراض القلوب والغفلة. ولا يفوتني أن أنوه بالنزاهة العلمية، والموضوعية التامة لهذا العالم الجليل محمد بن عباد النفزي الرندي رحمه الله، حيث لم تمنعه مشيخته الصوفية من ترجيح كفة شيخ التعليم، والانتصار للعلم والفقه، ومنح الأولوية والأسبقية لهما، في حين جعل دائرة شيخ التربية ضعيفة جدا، لا تضم إلا "من فيه بلادة ذهن واستعصاء نفس".

فتأمل معي أيها القارئ الفطن، واستعمل ذهنك الثاقب، وانظر كيف كان علماء القرون الماضية من أصحاب الذوق الصوفي النقي يفهمون التصوف، ويقيدونه بالشريعة، ويضبطون قواعده بضوابط الكتاب والسنة، حتى تذوب ماهيته في ماهية الإسلام، وتتلاشى علامات التمييز، ويبقى الحق هو ما جاء به القرآن وكلام الحبيب المصطفى صلوات الله وسلامه عليه. لكن خلف من بعدهم خلف انحرفوا عن هذا النهج القويم، وجعلوا شيخ التربية أو شيخ الطريقة أولى

---

[50] - حديث صحيح رواه البخاري.

من شيخ التعليم. بل اعتبروا تحصيل العلوم سببا في حرمان النفس من التزكية والاستقامة والترقي في مدارج الإيمان !! أو مانعا يحول دون الوصول إلى عالم الأذواق والحقائق الروحية والمعارف الكشفية والإلهامية!!، ناهيك عن الاعتقادات الفاسدة الضالة، المتعلقة بذوات هؤلاء الشيوخ، وكراماتهم وتصرفاتهم في النفوس والعوالم !!

ويقول شيخ الإسلام أحمد بن تيمية رحمه الله في معرض الحديث عن شيخ التربية أو الطريقة: "ومن أمكنه الهدى من غير انتساب إلى شيخ معين فلا حاجة به إلى ذلك. ولا يستحب له ذلك، بل يكره له. وأما إن كان لا يمكنه أن يعبد الله بما أمره إلا بذلك، مثل أن يكون في مكان يضعف فيه الهدى والعلم والإيمان والدين، يعلمونه ويؤدبونه، لا يبذلون له ذلك إلا بانتساب إلى شيخهم، أو يكون انتسابه إلى شيخ يزيد في دينه وعلمه، فإنه يفعل الأصلح لدينه. وهذا لا يكون في الغالب إلا لتفريطه، وإلا فلو طلب الهدى على وجهه لوجده"[51].

[51] - أحمد بن تيمية؛ مجموع الفتاوى، ج 10 (التصوف)، ص 514.

بعد أن أشار شيخ الإسلام أحمد بن تيمية إلى أن السالك ملتمس الهدى لا يلزمه "الانتساب إلى شيخ" ويقصد شيخ الطريقة، بل "لا حاجة به إلى ذلك"... نبه في آخر كلامه على مسألة التفريط، إذ قال: " وهذا لا يكون في الغالب إلا لتفريطه"، وإلا "فلو طلب الهدى على وجهه لوجده". وهذا ما يلاحظ في عصرنا، إذ تجد معظم المريدين الذين يلتفون حول شيخ من شيوخ الطريقة، قد فرطوا في تحصيل العلوم والتفقه في الدين، واستثقلوا ذلك لما فيه من العناء والمشقة، واستوعروا طريق العلم، وقالوا نحن ضعفاء ولن يصلح أحوالنا إلا شيخ طريقة صوفية، ونسوا أن أول ما أمر به الله تعالى القراءة وطلب العلم، حيث يقول جل وعلا في سورة العلق: "اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم"، أي أنه أوجب علينا القراءة، وتحصيل العلم، وتدبر القرآن، وفي ذلك حث على إعمال العقل، وتحريك آليات الذهن وتفعيلها، وتفجير الطاقات الروحية الكامنة في القلب بواسطة التفكير والتأمل والاستدلال، مع الاسترشاد بالوحي كتابا وسنة، والجلوس مع أولي العلم من العلماء والفقهاء الربانيين.

أما الارتماء في أحضان شيخ طرقي، والاعتماد عليه وحده في عبادة الله وصلاح النفس وتزكيتها وإبطال العمل بمقتضيات "اقرأ باسم ربك"، وما يتبع ذلك من تدبر وتأمل وتحصيل وإرادة واستغلال لآليات ومناهج المعرفة، وربط ذلك كله بفقه الواقع ووظيفة الاستخلاف، فإنه تفريط ما بعده تفريط، وتقصير في القيام بواجب تحصيل العلم والمعرفة، ويكون السالك بذلك قد طلب الهدى على غير وجهه، إذ كما قال شيخ الإسلام أحمد بن تيمية "لو طلب الهدى على وجهه لوجده".

موقف الإمام الشوكاني

وأخيرا أختم هذا الموضوع بما ختم به الإمام محمد بن علي الشوكاني في كتابه "أدب الطلب ومنتهى الأرب"، وهو كتاب أنصح طلاب العلم بقراءته لما يحويه من موضوعات نفسية متعلقة بمنهجية تحصيل العلوم الإسلامية، ودور العلماء في النصح والتوجيه ومحاربة الجهل والتقليد والتعصب... .

يقول الإمام الشوكاني رحمه الله وهو يتحدث عن "ابتلاء الإسلام بالمذاهب وتقديس الأموات": "... ويلتحق

بالأمرين المذكورين أمر ثالث: وإن لم تكن مفسدته كمفسدتهما، ولا شموله كشمولهما، وهو ما صارت عليه هذه الطائفة المدعوة بالمتصوفة، فقد كان أول هذا الأمر، يطلق هذا الاسم على من بلغ في الزهد والعبادة إلى أعلى مبلغ، ومشى على هدي الشريعة المطهرة، وأعرض عن الدنيا وصد عن زينتها، ولم يغتر ببهجتها، ثم حدث أقوام جعلوا هذا الأمر طريقا إلى الدنيا، ومدرجا إلى التلاعب بأحكام الشرع، ومسلكا إلى أبواب اللهو والخلاعة، ثم جعلوا لهم شيخا يعلمهم كيفية السلوك، فمنهم من يكون مقصده صالحا وطريقته حسنة، فيلقن أتباعه كلمات تباعدهم من الدنيا وتقربهم من الآخرة، وينقلهم من رتبة إلى رتبة، على أعراف يتعارفوها، ولكنه لا يخلو غالب ذلك من مخالفة للشرع وخروج عن كثير من آدابه. والخير كل الخير في الكتاب والسنة، فما خرج عن ذلك فلا خير فيه، وإن جاءنا أزهد الناس في الدنيا وأرغبهم في الآخرة، وأتقاهم لله تعالى وأخشاهم له في الظاهر، فإنه لا زهد لمن لم يمش على الهدي النبوي، ولا تقوى ولا خشية لمن لم يسلك الصراط المستقيم. فإن الأمور لا تكون طاعات بالتعب فيها والنصب وإيقاعها على أبلغ الوجوه. بل إنما تكون طاعات خالصة

محضة مباركة نافعة لموافقة الشرع، والمشي على الطريقة المحمدية.

ولا أنكر أن في هذه الطائفة من قد بلغ في تهذيب نفسه وغسلها من الطواغيت الباطنة والأصنام المستورة عن الناس، كالحسد والكبر والعجب والرياء ومحبة الثناء والشرف والمال والجاه مبلغا عظيما، وارتقى مرتقىً جسيما، ولكني أكره له أن يتداوى بغير الكتاب والسنة، وأن يتطبب بغير الطب الذي اختاره الله لعباده، فإن في القوارع القرآنية والزواجر المصطفوية، ما يغسل كل قذر، ويدحض كل درن، ويدمغ كل شبهة، ويدفع كل عارض من عوارض السوء. فأنا أحب لكل عليل في الدين أن يتداوى بهذا الدواء، فيعكف على تلاوة كتاب الله متدبرا له متفهما لمعانيه، باحثا عن مشكلاته، سائلا عن معضلاته ويديم النظر في كتب السنة المعتبرة عند أهل الإسلام كالأمهات الست وما يلحق بها. ويستكثر من مطالعة السيرة النبوية، ويتدبر ما كان يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم في ليله ونهاره، ويتفكر في أخلاقه وشمائله، وهديه وسمته، وما كان عليه أصحابه وكيف كان هديهم في عباداتهم ومعاملاتهم. فإنه إذا تداوى بهذا الدواء ولاحظته العناية الربانية، وجذبته الهداية الإلهية، فاز بكل خير مع ما

له من الأجر الكثير، والثواب الكبير، في مباشرة هذه الأسباب وإذا حال بينه وبين الانتفاع بهذه الأمور حائل، ومنعه من الظفر بما يترتب عليها مانع، فقد نال بتلك الأسباب التي باشرها أجرا عظيما، لأنه طلب الخير من معدنه، ورام نيل الرشد من موطنه، فكان له في تلك الأشغال من الأجر ما لطلبة علم الشرع. لأنه قد جهد نفسه في الأسباب، ولم يفتح له الباب.

وبعد هذا كله فلست أجهل أن في رجال هذه الطائفة المسماة بالصوفية من جمع الله له بين الملازمة لهذه الشريعة المطهرة والمشي على الطريقة المحمدية والصراط الإسلامي، مع كونه قد صار من تصفية باطنه من كدورات الكبر والعجب والحسد والرياء ونحوها بمحل يتقاصر عنه غيره، ويعجز عنه سواه، ولكني في هذا المصنف بسبب الإرشاد إلى العمل بالكتاب والسنة، والتنفير عما عداهما كائنا ما كان. فلست أحب لمن أراد القرب إلى الله والفوز بما لديه والظفر بما عنده، أن يتسبب إلى ذلك بسبب خارج عنهما من رياضة أو مجاهدة أو خلوة أو مراقبة، أو يأخذ عن شيخ من شيوخ الطريقة الصوفية شيئا من الاصطلاحات الموصلة إلى الله عندهم، بل يطلب علم الكتاب والسنة، ويأخذهما عن

العلماء المتقنين لهما المؤثرين لهما على غيرهما المتجنبين لعلم الرأي وما يوصل إليه، النافرين عن التقليد وما يحمل عليه، فإنه إذا فعل ذلك سلك مسلك النبوة، وظفر بهدي الصحابة، وسلم من البدع كائنة ما كانت، فعند ذلك يحمد مسراه، ويشكر مسعاه، ويفوز بخير أولاه وأخراه."[52]

لقد أحسن الإمام محمد بن علي الشوكاني الكلام عندما تعرض لمسألة الموازنة بين سلوك المتصوفة وسلوك غيرهم ممن يتقيد بسنة النبي صلى الله عليه وسلم وسنة الصحابة والتابعين، وأثنى على أهل الطائفة الأولى قائلا: " ولا أنكر أن في هذه الطائفة من قد بلغ في تهذيب نفسه وغسلها من الطواغيت الباطنية... مبلغا عظيما"، أو قوله " فلست أجهل أن في هذه الطائفة المسماة بالصوفية من قد جمع الله له بين الملازمة لهذه الشريعة المظهرة... ." لكنه عقب قائلا: "فلست أحب لمن أراد القرب إلى الله والفوز بما لديه والظفر بما عنده أن.... . . من رياضة أو خلوة... . أو يأخذ عن شيخ من شيوخ الطرق الصوفية شيئا من الاصطلاحات الموصلة إلى الله عندهم... بل بطلب علم الكتاب والسنة..."

---

[52] الإمام محمد بن علي الشوكاني؛ "أدب الطلب ومنتهى الأرب"، دار ابن حزم، 1419-1998/ص 261 وما بعدها.

كأني بهذا العالم القدوة يعض بنواجذه على سنة نبيه، وهو يرغب الناس في طلب الهدي من الكتاب والسنة، والإعراض عما سواهما من الطرق التي قد تفضي بسالكيها إلى ما لا يحمد عقباه، لقد كان هذا العالم رحمه الله للعلم مجمعا، وللدين مفزعا، وعلما في علمه وزمانه.

وبعد، أرجو من الله سبحانه وتعالى أن يكون القارئ اللبيب ذي الرأي الثاقب قد انقدح في قلبه، واستقر في عقله، أن القدوة المثلى لا تلتمس في شيوخ الطرق الصوفية، وإنما تطلب من معدنها الجوهري وعينها الفياضة: محمد صلوات الله وسلامه عليه، وصحابته ومن على أثرهم من العلماء الربانيين إلى يوم الدين.

لكن قد يقول قائل إن العالم الرباني غدا كالكبريت الأحمر، أو دونه بيض الأنوق، فأنى لي بمن سيأخذ بيدي ويقيني المهالك؟ أقول له: لا يكون هذا الأمر مسوغا لك أن تتخذ شيخا طرقيا، يرشدك ويقيك المهالك، لأننا معشر المسلمين أمة "اقرأ"، إن فقدنا العلماء فلن نفقد القرآن لأنه محفوظ، ولن نفقد السنة لأنها محفوظة أيضا حسا ومعنى. ويستحيل أن يخلو زمان من وجود عالم رباني؛ قال رسول

الله صلى الله عليه وسلم: "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق"؛ قال محمد بن إسماعيل البخاري: "وهم أهل العلم"[53] ثم إننا لا نقدس الشيوخ الطرقيين ولا شيوخ العلم، بل لو افترضنا خلو قرية أو مدينة من عالم رباني يسترشد به الناس، فإنه لن يكون ذلك مانعا من معرفة الحق والوصول إلى الله سبحانه وتعالى، لأن كتاب الله موجود والسنة مسطرة بين أيدينا. وهذا ما أشار إليه عالمنا النحرير الشوكاني بقوله: " فأنا أحب لكل عليل في الدين أن يتداوى بهذا الدواء فيعكف على تلاوة كتاب الله متدبرا متفهما... إلى... فاز بكل خير".

ثم إن وجود الشيخ الطرقي أو العالم الرباني ليس شرطا في نجاتنا، أي أنّ الفوز بالجنة ليس متوقفا بالضرورة عليهما، وما أكثر المسلمين الذين شهد لهم الناس بالصلاح والاستقامة، مع أنهم لم يلازموا شيوخ الطرق ولا شيوخ العلم.

---

[53] - انظر "فتح الباري، شرح صحيح البخاري"؛ باب قول النبي صلى الله عليه وسلم "لا تزال طائفة من أمتي..." من كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، ج 15 ص 9087، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، ط. 1 1420-2000

إن المنهج الصحيح لضبط السلوك وتفجير الطاقات العقلية والروحية، وتيسير السبل لتحقيق الاستخلاف، هو منهج الكتاب والسنة. لكن قوما - غفر الله لهم - آثروا . شخصية الشيخ الطرقي على شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم.

ولا يقولن قائل إنهم يحبون الرسول صلى الله عليه وسلم، أكثر مما يحبون شيوخهم. . هذا مستحيل فلا يمكن لشخصين أن يتغلغلا في قلب واحد. قال تعالى: "ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه"[54].

فمن أحب النبي صلى الله عليه وسلم حبا ملك شغاف قلبه، لا يستطيع حب غيره بنفس القوة. وكذلك من أحب شيخه وربط قلبه به، وحفظ صورته في خياله، وكان ملازما له- حيا أو ميتا- لا يفتر عنه طرفة عين، يصعب عليه أن يتوجه إلى روح نبيه صلى الله عليه وسلم بنفس الروح ويحبه بالقوة نفسها.

وأخيرا شتان بين من يستلهم روح النبي صلى الله عليه وسلم وشخصيته ويكثر من ذكره والصلاة عليه، ويقتفي أثره

[54] - سورة الأحزاب، آية 4.

ويهتدي بهديه هدي الفطرة، وبين من يستلهم روح شيخه الطرقي وشخصيته، ويثني عليه ويمدحه ويصحبه في خياله نوما ويقظة. وشتان بين شخصية رسالية تبني رجال الدنيا والآخرة، وتؤسس أمة الاستخلاف، وشخصية طرقية مجالها الطريقة والزاوية والأوراد والطقوس، وغايتها استغفال واستعباد المريدين والأتباع.

تطوان، رمضان المبارك 1426 هجرية
نوفمبر 2005 ميلادية

قائمة المصادر والمراجع

1- أحمد بن تيمية، مجموع الفتاوى ج 19
2- الإمام محمد بن علي الشوكاني؛ "أدب الطلب ومنتهى الأرب"، دار ابن حزم، 1419-1998/.
3- عبد الفتاح أبو غدة؛ تحقيق "رسالة المسترشدين" للمحاسبي، دار السلام، ط. 5، 1409-1988. [1]-
4- أبو إسحاق الشاطبي؛ "الموافقات في أصول الشريعة"، المجلد 1، الجزء 2، ، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت. .
5- شرح العقيدة الطحاوية للعلامة ابن أبي الخير الحنفي، حققها وراجعتها جماعة من العلماء، خرج أحاديثها محمد ناصر الدين الألباني/ بيروت ط 9. 1988/1408،.
6- سنن ابن ماجة (1322/2)
7- أبو حامد الغزالي؛ "إحياء علوم الدين"، ج 3، ص1-، دار الحديث القاهرة، 1419-1998.
8 القاضي أبو الفضل عياض السبتي: "الشفا بتعريف حقوق المصطفى" دار الكتب العلمية بيروت 2000/1420 الجزء الأول ص 18
8- أبو حامد الغزالي؛ "إحياء علوم الدين"، ج 3، ص112-113، دار الحديث القاهرة، 1419-1998.
9- شرح العلامة الزرقاني على "المواهب اللد نية بالمنح المحمدية" للعلامة القسطلاني الجزء الثامن ص 521 / دار الكتب العلمية بيروت 1417-1996.

10- أبو إسحاق الشاطبي؛ "الموافقات في أصول الشريعة"، المجلد 1، الجزء 2، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت.
11- أحمد بن تيمية؛ "اقتضاء الصراط المستقيم"، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرباطؤ، 1419.
12- أحمد بن تيمية؛ "فتاوى ابن تيمية"، ج 11، ، د. ت، د. ط. .
13-عبد المجيد الخاني الخالدي النقشبندي؛ "السعادة الأبدية فيما جاء به النقشبندية". إسطنبول 1401-1981.
14-محمد أبو الهدى الصيادي؛ "قلادة الجواهر في ذكر الغوث الرفاعي وأتباعه الأكابر"، ، ط. الأولى، 1400-1980، بيروت.
15-عبد الوهاب الشعراني؛ "الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية"، ج1، ص40، المكتبة العلمية، بيروت، 1412-1992.
16-أبو حامد الغزالي؛ "إحياء علوم الدين"، ج 3، ، دار الحديث القاهرة، 1419-1998.

17-أحمد سلام: "ما أنا عليه وأصحابي" دراسة في أسباب افتراق الأمة... . / دار ابن حزم بيروت 1996/1416،
18-"تحفة الأحوذي" 7-399-400.
19- أحمد بن حجر العسقلاني؛ "فتح الباري..."، ج1 المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، ط1، 1420-2000.
20-صحيح البخاري، كتاب الإيمان

21-مصطفى صادق الرافعي، "وحي القلم"؛ ج1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1422-2001، ط. 1.
22-الدكتور محمد عبد الله دراز ؛ "المختار من كنوز السنة"،
23-محمد بن قيم الجوزية؛ "مدارج السالكين"، ج 2،. دار الجيل، بيروت، د. ت.
. 24- شرح العلامة الزرقاني على "المواهب اللدنية بالمنح المحمدية" للعلامة القسطلاني الجزء الثامن / دار الكتب العلمية بيروت 1417-1996.

25-أبو بكر جابر الجزائري؛ "هذا الحبيب محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم "، المكتبة العصرية صيدا، 1420-1999،[1] -.
26-عبد الرحمن أبو بكر السيوطي: "الأمر بالإتباع والنهي عن الابتداع" تحقيق مصطفى عبد القادر عطا/ دار الكتب العلمية بيروت لبنان 1408/1988/ ص 12-13
27-"إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء" الشيخ الخضري / دار الفكر العربي بيروت/1992.
28-أحمد بن تيمية؛ منهاج السنة، ج3 .

إصدارات مكتبة سلمى الثقافية

1) من فضاء التشكيل : ذ. محمد الغنـاج
2) البطالة الفكرية في مجتمعنا (الأسباب والانعكاسات): ذ. محمد بنيعيش.
3) أسرار النقد الأدبي: د. محمد مشبال
4) درجة الوعي في الترجمة : د. رشيد برهون.
5) دراسة نقدية لكتاب التربية الإسلامية (قسم لباكلوريا): ذ. جلال راغون.
6) دراسات عن القروض والربا: د. محمد التجكاني
7) جوامع مع الكلم في البيان النبوي: د. عبد الرحمان بودرع.
8) بديع الزمان سعيد النورسي: د. حسن الامراني.
9) خطاب القيم في القصيدة المكية: د. حسن الوراكلي.
10) المرابطون: بحث في المكونات السياقية: د. عبد الواحد بنصبيح .
11) حجة النبي وعمراته د. محمد الحبيب التجكاني.
12) خطب الجمعة - لمسجد أمسا - ذ. عبد الله الطنيبار
13) القدوة بين الاتباع والابتداع د. عبد الله الشارف

الكتاب القادم:

طه حسيـن فـي المـغـرب

- صفحة في سفر التواصل - المصري المغربي

د. محمد محمد المعلمي.

تطلب هذه الكتب من مكتبة سلمى الثقافية
زنقة الصفار رقم 7 تطوان، المغرب، تلفكس 039974561

الفهـــرس

هذا الكتـــــاب ...

...خفت صوت العلم وخبت جذوة ناره، وضعف الاجتهاد الفقهي، وتوقفت عجلة الثقافة عن الإبداع واستقراء السنن الاجتماعية والتاريخية، وأصاب الشلل كافة النواحي الدينية والاجتماعية والعلمية، وحلت القدوة الصوفية الطرقية محل القدوة العلمية الربانية التي كانت تنهل من مشكاة النبوة...

..."وقد كتب الإمام الفقيه الأصولي أبو إسحاق الشاطبي الغرناطي، المتوفى سنة 790، إلى شيخ الصوفية في عصره أبي عبد الله محمد بن عباد النفزي الفاسي، المتوفى سنة 792 رحمهما الله تعالى، يسأله : هل على السالك إلى الله تعالى أن يتخذ – لزاما- شيخ طريقة وتربية يسلك على يديه؟ أم لا ؟.

فكتب إليه الشيخ ابن عباد رحمه الله: "...فشيخ التربية ليس ضروريا لكل سالك، وإنما يحتاج إليه من فيه بلادة ذهن واستعصاء نفس. وأما من كان وافر العقل منقاد النفس، فليس بلازم في حقه، وأما شيخ التعليم فهو لازم لكل سالك."

الكاتـــب

- الدكتور عبد الله الشارف من مواليد تطوان (المغرب) سنة 1954.
- الإجازة في علم الإجتماع / جامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس سنة 1979.
- دبلوم الدراسات العليا في علم الإجتماع / جامعة السوربون بباريس سنة 1984.
- دكتوراه الدولة في الدراسات الإسلامية / جامعة عبد المالك السعدي بتطوان سنة 1999
- يشتغل بتدريس الفلسفة والفكر الاسلامي بكلية أصول الدين (جامعة القرويين)، وعلم النفس وعلم الاجتماع بكلية الأداب(جامعة عبد المالك السعدي) بتطوان.

صدر له ثلاثة كتب :

* "أثر الاستغراب في التربية والتعليم بالمغرب"، منشورات نادي الكتاب لكلية الاداب بتطوان/الطوبريس طنجة 2000.
* "واردات وخواطر إيمانية"، منشورات نادي ..../ طوب بريس الرباط 2002.
* "الاستغراب في الفكر المغربي المعاصر"، منشورات نادي الكتاب لكلية الآداب بتطوان/طوبريس الرباط 2003.

- نشرت له مقالات في بعض المجلات المغربية.

الثمن 16 درهم